﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يمتنُّ الله تعالى على المؤمنين بتوبتِه عليهم ممّا خاضوا فيه من حديثِ الإفكِ

جاءت هذه الآيةُ بعد أن تقدَّمها عرضُ الوسائل الوقائيَّةِ الَّتي من شأنها أن تُقلِّل من شأن هذه الإشاعات، والتَّكلُّم بأعراض المؤمنين، وهي امتنانٌ من الله عليهم، بأنَّه لولا فضلُهُ ورحمتُهُ لهم؛ للحقهم العذابُ العاجل فضلًا عن الآجل، جرّاء ما وقعوا فيه، ومثلُ هذا التَّعقيبِ والمنِّ عليهم تكرَّر في السّورة الكريمةِ، يقول البقاعيُّ: "ولمّا بيَّن لهم بإقامة الدَّليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنَّهم استحقّوا الملام، وكان ذلك مُرغِّبًا لأهل التَّقوى؛ بيَّن أنَّهم استحقّوا بالتَّقصير في الإنكار عمومَ الانتقام في سياقٍ مبشِّرٍ بالعفو"(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخَيْرُ، والإفْضالُ: الإحْسانُ، ورَجُلٌ مُفْضِلٌ، ويُقالُ: فضَلَ الشَّيْءُ يَفْضُلُ، وأَمّا المُتَفَضِّلُ؛ فالمُدَّعي لِلْفَضْلِ على أَضْرابه وأَقْرانِه، ويُقالُ: المُتَفَضِّلُ: المُتَوَشِّحُ بِثَوْبه، ويَقولونَ: الفُضُلُ: الَّذي عليه قَميصٌ ورِداءٌ، ولَيْسَ عليه إزارٌ ولا سَراويلُ(2)، والفضل المقصود في الآية هو الإحسانُ.

2) ﴿أَفَضْتُمْ﴾: (فيض) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيْءِ بِسُهولَةٍ، ثُمَّ يُقاسُ عليه، مِنْ ذَلِكَ: فاضَ الماءُ يَفيضُ، وأَفاضَ إناءَهُ: مَلَأَهُ حَتَّى فاضَ، وأَفاضَ دُموعَهُ، وأَفاضَ القَوْمُ في الحَديثِ:

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 230.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

انْدَفَعوا فيه، قالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: 61][1]، ورجل فيّاضٌ: سخيٌّ، ومنه استُعير: أَفاضوا في الحديث؛ إذا خاضوا فيه، وهو المعنى المُرادُ في الآية الكريمة[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخاطب اللّهُ تعالى مَن خاضوا في هذا الحديثِ المُحرَّم، بأنَّه لولا فضلُهُ عليهم ورحمته بهم في الدُّنيا بإعطائهم فرصةً للتَّوبة، وفي الآخرة بقبول توبتهم، لولا ذلك؛ لنزل بهم بسبب ما أفاضوا فيه من حديث الإفك عذابٌ عظيمٌ، لا يعلم مقدار ألمه وشدَّته إلّا اللّهُ ﷻ[3].

يـدُ الـفـضـلِ والـرَّحـمـةِ هي النّورُ في مثلِ هذا المقامِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى تصديرِ الآية بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [4]، و(لولا) هنا حرفُ امتناع لوجود، بيَّنت أنَّهم استحقُّوا العقاب بفعلهم، لكنَّ اللّه تفضَّل عليهم بقبول توبة من تاب، والعفو عمّن أخطأ.

تـفـضـل الـلـه تـعـالى عـلى عباده حتى بعد وقوعهم في ما نهى عنه

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء (على):

في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، أفاد التَّعبيرُ بتعدية الفضل والرَّحمة بحرف الجرِّ (على) تسلُّطَ هذا الفضل والرَّحمة عليهم من كلِّ مكان بحيث غطَّتهم وغمرتهم من فوقهم.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وتوسيطها:

أفادَ تقديمُ شبه الجملة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تخصيصَ المقصودين في الآية بهذا الفضل، والعنايةَ بهم بهذه الرَّحمة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (فيض).
(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 97.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 5/ 243.

نكتةُ الإضافةِ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾:

رفْـعٌ لشـأنِ هذا الـفـضـلِ وهـذه الرَّحمةِ

في قوله ﷻ: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ جاءتْ إضافةُ الفضل إلى لفظ الجلالة، وإضافةُ الرَّحمةِ إلى الضَّمير العائدِ إلى لفظ الجلالة، والذي جيء به إيجازًا لتقدُّم ذِكْر لفظ الجلالة في ذلك كلِّه رفْعًا لشأن هذا الفضل وهذه الرَّحمة، وأنَّهما ليسا كأيِّ فضلٍ ورحمة.

نكتةُ ذِكْر ظرفيَّةِ الفضل والرَّحمة:

الإفكُ يستوجبُ العذابَ الدُّنيويَّ والأُخرويَّ

في ذِكْر لفظَي الدُّنيا والآخرة إشارة إلى أنَّ هذا الإفكَ يستوجب نوعَيْن من العذاب، "والفَضْلُ في الدُّنْيا يَتَعَيَّنُ أَنَّهُ إِسْقاطُ عُقوبَةِ الحَدِّ عَنْهُم بِعَفْوِ عائِشَةَ وصَفْوانَ عَنْهُم، وفي الآخِرَةِ إِسْقاطُ العِقابِ عَنْهُم بِالتَّوْبَةِ، والخِطابُ لِلْمُؤْمِنينَ دونَ رَأْسِ المُنافِقينَ، وهَذِهِ الآيَةُ تُؤَيِّدُ ما عليه الأَكْثَرُ أَنَّ النبي ﷺ لَم يَحُدَّ حَدَّ القَذْفِ أَحَدًا مِنَ الَّذينَ تَكَلَّموا في الإِفْكِ، إِمّا لِعَفْوِ عائِشَةَ وصَفْوانَ، وإِمّا لِأَنَّ كَلامَهُم في الإِفْكِ كانَ تَخافُتًا وسِرارًا، ولَم يَجْهَروا به، ولَكِنَّهُم أَشاعوهُ في أَوْساطِهِم ومَجالِسِهِم"[1]، ففي التَّقييد بالمذكورِ كنايةٌ عن عِظَم هذا الإفْكِ، وعِظَم العقابِ عليه، وعِظَم التَّوبة عنه.

معنى(أل) في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

أفاد التَّعريفُ في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ العهدَ الذِّهنيَّ، فهي الدُّنيا التي نحياها، والآخرة التي نرجوها.

نكتةُ التقديمِ في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

في تقديم الجزاء الدُّنيويِّ على الأخرويِّ إشارةٌ إلى ضرورة تطبيق الحدود في الدُّنيا؛ لأنَّ في تطبيقها إظهارًا لشعائر الله، فضلًا عن أنَّ فيها تخفيفًا أو إعفاءً من عذاب الآخرة لِمَنْ أُقيم عليه الحَدُّ في الدُّنيا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 176 - 177.

بلاغةُ الطِّباق في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

عـمـوم الفضل سـار في جميع الأطوار

في ذِكْرِ الدُّنيا والآخرةِ طباقُ إيجابٍ، حيث إنَّ اللَّفظتَيْن متقابلتان، وفي القَرْن بينهما تحريكٌ للنَّفس للتَّفكُّر في كلٍّ منهما في نور الآخر، فيتمكَّن التَّرهيب في النَّفس، والتَّرغيبُ أيضًا، ففي الطِّباق إحسانٌ إلى المعنى القرآنيِّ والمتلقي جميعًا.

معنى قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾:

مـا تـنـاقـلَـهُ الأفّاكون عظيمٌ يستوجبُ عقوبةً عُظمى

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ للتَّوكيد، وهي اللّام الواقعة في جواب ﴿وَلَوۡلَا﴾[1]، وأفاد حرف ﴿فِي﴾ التَّعليلَ في قوله: ﴿فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾، أيْ: بسبب ما خُضتم فيه من حديث الإفك، وفي التَّعبير بـ ﴿فِي﴾ إشعارٌ بعِظَم تسبُّب ما خاضوا فيه في أن يَمَسَّهُم عذابٌ عظيمٌ، فقد استغرقوا في هذا السَّبب، وتمكَّن هو فيهم، وأحاط بهم، وأقبلوا هم بكليَّاتهم عليه، فلهذا كان عذابهم عظيمًا، و﴿مَآ﴾ اسم موصول، وهو عبارةٌ عن حديث الإفك، ويصحُّ أن تكون ﴿مَآ﴾ مصدريَّةً على معنى: لَمَسَّكم بسبب إفاضتكم وخوضِكم في الإفك[2]، والإبهام في ﴿مَآ﴾ لتهويل أمره واستهجانِ ذِكْره[3].

بلاغةُ الاستعارة ﴿أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾:

مَـن رضـيَ بالمخالفةِ أقبَلَ عليها بقوَّةٍ

شبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ الخوضَ في حديث الإفكِ والإسراف فيه بالإفاضةِ التي تكون من صفات الماء؛ إذا فاض، وذلك بجامع تجاوُزِ الحَدِّ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وفي هذه الاستعارةِ كلُّ ذمٍّ وتوبيخٍ وتقبيحٍ للمُحدَّث عنهم؛ لأنَّها تعني عدم حصولِ التَّفكير والتَّأنّي منهم، وأنَّ أنفسهم رضيت بالإقبال على

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 315.

تلك الشَّهوة والجريمة، فاندفعت إليها، ولاكتها بألسنتها، وما كان لها أن يكون منها ذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِيهِ﴾:

للظَّلامِ بُنيانٌ سرعان ما ينهدمُ

شبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ حديثَ الإفكِ بالظَّرف الذي يضمُّ أشياء بداخلهِ، بجامع أنَّ كلًّا منهما له حيِّزٌ وحدودٌ، فحذَفَ المُشبَّهَ، وأبقى على شيءٍ من لوازمهِ على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وهذا أبلغُ في تصوير حديث الإفك على أنَّه بنيانٌ كاملٌ، يقوم على بنائهِ وتهيئته نفرٌ من المنافقين الذين يتربَّصون بالأُمَّة، والذين يسعون في عمارتهِ، كما سعَوا في إقامة مسجد الضِّرار.

غرضُ تقديم ﴿فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾:

أوَّلُ مراحلِ العلاجِ معرفةُ الدّاءِ وقَدْرِه

أصلُ الجملة في الآية: لمسَّكم عذابٌ عظيمٌ فيما أفضتم فيه، ولكنَّ تقديم شبه الجملة الظَّرفيَّة أفاد تقديمَ السَّبب على النَّتيجة، والعلَّة على المعلول، وفي هذا التَّقديم نعيٌ على هذا الإفكِ وعلى القائمين عليه، وفيه التَّهويلُ والتَّفخيم مِن شأنه، وأنَّ مِن شأن مثله أن يستوجب عذابًا عظيمًا.

نكتةُ تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

أيُّ عذابٍ يكونُ إذا لم يكن فضلُ اللهِ ورحمتُه؟

تنكيرُ الفاعل المُؤخَّر ﴿عَذَابٌ﴾ هنا أفاد التَّعظيمَ، أيْ: عذابٌ لا يُدرك كنهُهُ، ويمكن أن يكون التَّنكيرُ للنَّوعية، على معنى: أنَّه ليس كأيِّ عذابٍ تعرفونه، يقول ابن عاشور: "وصْفُ العَذابِ بِالعَظيم دَليلٌ على أَنَّ تَنْكيرَ ﴿عَذَابٌ﴾ لِلنَّوْعيَّة، وذَلِكَ اهْتِمامٌ بِالتَّنْصيص على عِظَمِه؛ لِأَنَّ التَّنْكيرَ، وإِنْ كانَ صالِحًا لِلدَّلالَة على التَّعْظيم إِلّا أَنَّهُ لَيْسَ بِنَصٍّ فيه، ولا يَجوزُ أَنْ يَكونَ ﴿عَظِيمٌ﴾ تَأْكيدًا؛ لِما يُفيدُهُ التَّنْكيرُ مِنَ التَّعْظيم؛ لِأَنَّ دَلالَةَ التَّنْكيرِ على التَّعْظيم غَيْرُ وضْعيَّةٍ، والمَدْلولاتُ غَيْرُ الوَضْعيَّةِ يُسْتَغْنَى عَنْها إِذا ورَدَ ما يَدُلُّ عليها وضْعًا، فلا يُعَدُّ تَأْكيدًا"[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.

فائدةُ وصف العذاب بالعِظَم:

أيَّةُ غفلةٍ أحاطت بـمَـن جـاؤوا بالإفكِ؟

في وصفِ العذابِ المُنكَّرِ بالعِظَم مزيدٌ من التَّفخيم والتَّعظيم لشأنه؛ ليتناسبَ مع هذا الإثم الذي تولّاه صاحبه، وفي هذا مزيدٌ من الوعيد له، والعذابُ العظيمُ هو عذابُ الآخرة، وممّا لا يخفى أنَّ بناء ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنة (فعيل) يدلُّ على ثبوت هذه الصِّفة وملازمتها للعذاب، والوصفُ ساكن في تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ وأفصح به؛ لمواجهة الغفلةِ العظيمة التي قام فيها المخاطَبون، ويقوم فيها أمثالُهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسُّ والإصابةُ:

الاشـــتراكُ في المـباشـرةِ والمـلامـسـةِ، و(الإصابة) أبلغُ في تغلغُلِها من (المسِّ)

ثمَّةَ فروقٌ بين المَسِّ والإصابة، فالمسُّ يكون الإدراك معه بحاسَّة اللَّمس، ويكنّى به أحيانًا عن النِّكاح والجنون والأذى[1].

أمّا الإصابة؛ فأصلُ جذرها (صوب)، ويدلُّ على نزول شيء واستقراره[2]، و(الصَّواب) عند الرّاغب على وجهَيْن، **أحدهما**: باعتبار الشَّيء في نفسه، فيُقال: هذا صوابٌ، إذا كان في نفسه محمودًا بحسب مقتضى الشَّرع والعقل، **والثّاني**: يُقال باعتبار القاصد؛ إذا أدرك المقصود بحسب ما يقصده، فيُقال: أصاب كذا؛ إذا وجد ما طلب[3].

وقد دلَّ الاستعمال اللُّغوي والقرآنيُّ لهاتَيْن اللَّفظتَيْن على اشتراكهما في المباشرة والملامسةِ لِمَنْ وقع فعلهما عليه، مع تمكُّن (الإصابة) وتغلغلها على وجهٍ أبلغَ من (المسِّ)؛ لذا فإنَّ في استعمال إبراهيمَ ﷺ للمسِّ في حواره مع أبيه نوعًا من المؤانسة والترغيبِ في دعوة أبيهِ لدينه، لا يسدُّ مسدَّها أن يقول له: (يصيبك عذاب من

(1) الراغب، المفردات، ص: 354.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ص: 579.
(3) الراغب، المفردات، ص: 216.

الرحمن)، والتَّعبيرُ بالمَسِّ في آية النّور فيه تهديدٌ شديدٌ ولطف بهم أيضًا، فإنَّ القرآن ذكَر أدنى صور الجزاء، وهو أن يمسَّهم عذابٌ عظيم؛ تناسبًا مع ذِكْر رحمة الله وفضله في السّياق.

أفضتم وخضتم:

الكلمتانِ مُستعارتان للتَّعبيرِ عن الحديث فيما لا ينبغي الحديث فيه

الخَوْضُ: هو الشُّروع في الماء والمرور فيه، ويُستعار في الأمور، وأكثرُ ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمُّ الشُّروع فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]، فكثيرًا ما كان يأتي الخوضُ مقترنًا مع اللَّعب في الحديث عن المنافقين والكافرين، وهم يخوضون في آياتِ الله، وأمّا الإفاضةُ؛ فقد تقدَّم أنَّه استُعير لفظُ الإفاضة للخوضِ في الحديث، فالكلمتان مُستعارتان للتَّعبير عن الحديث فيما لا ينبغي الحديث فيه، ولكنَّ الخوضَ هو مُجرَّد الشُّروع في الحديث، والإفاضة أبلغُ في الشُّروع؛ لذا جاء في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 8][1].

(1) الرّاغب، المُفردات: (خوض).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»